الفخـــار والزجـــاج والبلور في العصر الاسلامي في اليمـــن

الدكتور غازي رجب محمد
قسم الآثار ـ كلية الآداب
جامعـة بغـداد

الفخـار والخزف والزجاج والبلور مـن الصناعات التي احتاجهـا الانسان مذ عرف الاستقرار ووجدت لها تربة خصبة في عـدد من أقطار العالم ومنها اليمن منذ أقدم العصور بسبب الحاجة الى الآنيـة والادوات التي تتصل بحيـاة الناس اتصالا وثيقا وحاول الانسان جادا تطوير هـذه الصناعات في العصور المتعاقبة ، سواء من حيث المادة التي صنعت منها أم الشكل أم الزخارف التي نفذت عليهـا بطريقة الحز أو الحفر أو التخريم أو الاضافة أو التلويـن .

وقد اهتم علمـاء الاثار والمنقبون بالفخار والخزف بصورة خاصة ، لانها تكشف عـن تاريخ الحضارة الانسانية وتطورها وتعكس مدى تدرج البشرية في الرقي والتطور .. فالفخار والخزف من منتجات المواد الطينية وهو من الصناعات المزدهرة في أكثر الاقطار العربية والاسلامية ، فهي لم تكن وليدة قطر معـين أو عصر معين ، بل قامت في مختلف أنحاء العالم ، ومهدت لقيامها القرون المتلاحقـة .

وقد اتبـع الخزافون اليمنيـون في العصر الاسلامي نفس الاساليب التقليدية القديمـة التي كانت سـائدة في بلادهم قبل الاسلام وطوروها

وابتكروا أساليب جديدة في الشكل وفي الزخرفة تتفق وتعاليم الدين الاسلامي والتيار الجديد للدولة الاسلامية ، فظهرت منتوجات فخارية متنوعة في الشكل وطرق الزخرفة واسلوب الصناعة ، وقد تكون مشتركة في أكثر من اقليم واحد مما يدل على شدة الاقبال على هذه الصناعة(١) ٠

ودراسة دقيقة للقطع الفخارية القليلة التي عثر عليها في اليمن ، تدل دلالة أكيدة على ان الفخار اليمني كان من تصميم وصنع محليين ، على الرغم من عدم خلوه من المؤثرات الاجنبية في الشكل وفي الزخرفة(٢) ٠

وتعود قلة النماذج من الفخار الاسلامي في اليمن الى سهولة كسره وقلة التنقيبات في المواقع الاسلامية في البلاد اليمنية ، وربما كشفت لنا الايام عن نماذج جديدة توضح لنا أكثر أسرار هذه الصناعة وتطورها ومكانة اليمن في هذا الميدان ٠

ولنوعية التربة أهمية كبيرة في الصناعة الفخارية ، ولذلك اشتهرت بها بعض المناطق اليمنية ذات التربة الجيدة دون غيرها فتصدره الى المناطق التي تحتاجه والتي تفتقر الى هذه الصناعة ، فسدت أكثر حاجات أهل اليمن من هذه الصناعة(٣) ٠

واشتهرت مدينة حيس(٤) بصناعة الاواني الفخارية البراقة التي تسمى بـ « الحياسي » نسبة الى هذه المدينة التي تبعد حوالي ٤٠ كم جنوب شرق زبيد ، كما اشتهرت مدينة الزبدية(٥) واللحية(٦) على البحر الاحمر ومدينة الدمينة(٧) بين تعز وزبيد بهذه الصناعة ، وكذلك مدينة زبيد(٨) التي اشتهرت بالفخار « الزبيدي » ٠٠ كما اشتهرت جبلة بهذه الصناعة أيضا(٩) ٠

وشملت الاواني الفخارية القلل والجرار والاباريق والفناجين بأنواعها(١٠) ٠ وأحسن أنواع هذه الصناعة وأرقها ما عمل لذوي الشأن والسلطان وما عداه ، فهو من الانتاج الشعبي(١١) ٠ وكانت نتيجة تجارب

الفخراني اهتدائه الى تغطية الآنية والادوات الفخارية بطبقة زجاجية ·

واتسم الخزف الاسلامي عموما بسمة الحضارة العربية مع اختلافات بسيطة نابعة من اختلاف الاذواق في الاقاليم أو البلاد التي انتجت أشكالا متنوعة متأثرة بطريقة معالجة الطين او بالزخارف المنفذة عليه ·

وكان الخزف الصيني من بين المواد التي عرفها اليمنيون في بلادهم وأقبلوا على استعمالها منذ القرون الاسلامية الاولى ، وقد سجلت كتب التاريخ ان هذا الخزف كان من بين الهدايا التي تسلمها سلاطين اليمن من ملوك الصين ومن أقطار اخرى(١٢) · وهناك اشارات عديدة تعبر عن اعجاب المسلمين بالخزف الصيني الذي وصل اليهم نتيجة العلاقات التجارية الوثيقة بين الصين وبلدان العالم الاسلامي منذ أوائل القرن السابع الميلادي(١٣) · وقد أقبل الخزافون المسلمون على تقليد هذه الصناعة التي استمرت قائمة في بلادهم فترة طويلة من الزمن ، وكان من العسير علينا أن ننسب اسلوبا خاصا أو زخرفة خاصة من هذه الصناعة الى قطر من الاقطار ·· فقد عثر على قطع عديدة مصنوعة في الصين أو مقلدة في سامراء والفسطاط وفي غيرها من المدن الاسلامية ، اضافة الى أنواع اخرى من الخزف المستورد(١٤) · وقد بلغ تقليد صناعة الخزف الصيني من قبل الفنانين المسلمين حدا من الاتقان يفوق الاناء المقلد ذاته في كثير من الاحيان(١٥) ·

الزجاج والبلور :

عرفت بلاد الشرق صناعة الزجاج قبل الاسلام واستمرت هذه الصناعة في العصر الاسلامي الاول وفق الاساليب التى كانت سائدة فيها وكانت الزعامة لمصر وبلاد الشام في هذا الميدان ·

والظاهر ان صناعة الزجاج كانت معروفة في اليمن قبل الاسلام ·· اذ كانت تصنع منه الاقداح والقناديل والمسارج والقوارير لحفظ الزيوت

والعطور(١٦) . الا ان هـذه الصناعة لم تتطور في القرون الاسلامية الاولى ولم تتجدد(١٧) لذلك اعتمد اليمنيون على ما كان يستورد منها أو ما كان يصل اليهـا من هدايا ، وخاصة مـن بلاد الشام التي كان لهـا قصب السبق في هـذه الصناعة وكان مـن اليسير على أي كان أن يوصي بعمل تحفة يسجل اسمه عليها في بلد آخر .

وكانت زجاجيات حلب ذات الصفـة الدقيقة والزخارف البديعة من أثمن المقتنيات التـي « تحمل الى سائر البلاد للتحف والهدايا » (١٨) . ويروي الشاعر سعدي في كتابه « كلستان » عن تاجر يسأله عـن وجهة سـفره ويجيبه التاجر « .... واخذ الزجاج الحلبي الى اليمـن والاقمشة اليمنية الى ايران» (١٩). وكانت مصنوعات أنطاكيا وصور الزجاجية من النفاسة بحيث انها كانت تقدم كهدايا الى « ملوك اليمن » وغيرهم(٢٠) .

ولا جدال في ان بلاد الشام كانت من أهم مراكز صناعة الزجاج على الاطلاق ، وكان في أسواقها أنواع الفناجين والاواني الزجاجية التي تصدر الى الخارج والتي تمتـاز بأشكالها البديعة ورسومها الانيقة . وقـد أطلق اسم « دمشـق » على معظـم ما صدر الى اوربا مـن زجاجيات مذهبـة ومطليـة بالمينا(٢١) .

وقـد عرف أهل اليمن صناعة الآنيـة والادوات البلورية ، وكانـوا يستخلصونه مـن نوع خاص من الحجر من باطن الارض وينحتونه بعناية ودقـة ، وكان اللون الابيض هو الغالب عليه(٢٢) . ورغم معرفة صناعة البلور محليا، فقد سجلت المصادر التاريخية ان البلور كان من بين الهدايا التـي تسلمها سـلاطين اليمن مـن ملوك ودول اخـرى خارج البـلاد اليمنيـة(٢٣) .

وقـد أقبل الناس عـلى استعمال آنيـة البلور في حياتهم اليوميـة لاعتقادهم ان للشرب فيها فوائد صحية عظيمة .. وان تعليق واحدة منهـا

فوق الانسان ، تحميه من الاحلام المزعجة · ونظرا لشفافية هـذا الحجر ونقائه فقد اعتبر رمزا للنقاء الروحي(٢٤) ·

وأشارت المراجع التاريخيـة الى وجود تحف نادرة مشـهورة صنعت من مادة البلور الصخري منها الثريا البلورية (القليلة) التي كانت معلقة في محراب الجامع الاموي في دمشق وكاس زوجة الخليفة هشام بن عبدالملك المفضل ، والتي كانت لا تستطيع الشرب الا منـه(٢٥) ·

وقد برعت بعض الامصار الاسلامية بالصناعات البلورية ومنها مدينة البصرة ومدينة بغداد · وأشـار البيروتي(٢٦) الى ان أهـل البصرة كانوا يصنعون أحسـن أنواع البلور الصخري ·· واتقـن أهل بغداد خرطـه وتهذيبـه(٢٧) ·

وازدهرت صناعة البلـور الصخري في العصر الفاطمي في مصر عـلى وجه الخصوص ، وكانت هذه الصناعة موضع اعجاب الرحالة والجغرافيين العرب في العصور الوسطى الاسلامية(٢٨) · ووصلنا عدد لا بأس به من تحف البلور تعبر عن تقدم وتطور في هـذه الصناعة كبير ، ومنها آنيـة العطور وآنية صغيرة لوضع الكحل، كما صنعوا المحابر وقطع الشطرنج·

وقـد ساعدت العلاقات الطيبة التي كانت قائمـة بين اليمن في زمن الصليحيين ثم في زمن بني رسول ، ومصر في زمن الفاطميين ·· ثم فـي زمن المماليك عـلى وصول أعداد كبيرة من التحف الزجاجية والبلورية الى اليمن على الارجح ، وان ما استعملوه منها كان يرد اليهم مـن مصر وبلاد الشام(٢٩) على وجـه الخصوص ·

الهوامـــش :

(١) حسـن : فنون الاســلام ص٢٥٨ ·

(٢) علـي : المفصل جـ٨ ص١١ ·

(٣) الحبيشي : « مجتمع صنعاء » ص٦٧ ·

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص٧٤ حاشية ١ ، الويسي : اليمـن الكبرى ص٨٨ ، الثور : هذه هي اليمن ص٤٢٦ ـ٤٢٧ ·

(٥) الثور : نفس المصدر ص٤٣٣ ، الويس : نفس المصدر ص٩٨ ·

(٦) الثور ص٤٣٦ ، الويس ص٩٩ ·

(٧) ابن المجاور : المسـتبصر ص٢٣٣ ·

(٨) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ٢ ص٢٣٣ ·

(٩) الحبيشي : المصدر السـابق ص٨٣ ·

(١٠) الشاطري : أدوار التاريخ الحضرمـي جـ٢ ص٦٣ ، لقمان : تاريـخ عـدن ص٢٥٠ ·

(١١) ديماند : الفنون الاسلامية ص١٦٥ ·

(١٢) الخزرجي جـ١ ص٣٥٠ و جـ٢ ص٢٣٣ و٣٠٢ مجهول: تاريخ اليمن ص١٤٢ ، ١٤٥ ·

(١٣) حسن : كنوز الفاطميين ص١٦٧ ، ١٦٨ ·

(١٤) حسن : الصين وفنون الاسلام ص٣٣ ـ٣٤ ·

(١٥) Pope, An introduction to Persion Art PP. 75 — 76

جسن : الصين وفنـون الاسـلام ص٣٤ ـ٣٦ ، ديماند : الفنـــون الاســلامية ص١٦٤ ·

(١٦) علـي : المفصل جـ٨ ص٦٢ـ٦٤ ·

(١٧) Rathjens, Jewish Domestic Architecture PP . 31

(١٨) القزويني : آثار البلاد ص١٨٣ ، ١٨٤ ، حسـن : كنوز الفاطميين ص١٧٨ ، عبدالخالق : الزجاج الاسلامي ص٦٨ ·

(١٩) حسن : فنون الاسلام ص٥٨٢ ·

(٢٠) عبدالحق ، اسهام في دراسة الزجاج الاسلامي ، ص١٦١ .

(٢١) ديماند : نفس المصدر ص٢٣٨ .

(٢٢) زكـي : الاحجار الكريمة ص١٠٧ـ١٠٩ ، علي : المفصل جـ٨ ص٦٤

(٢٣) مجهول : نفس المصدر ص٩٢ ، ١٤٢ .

(٢٤) حسـن : فنون الاسلام ص٥٩٢ ، ٥٩٣ .

(٢٥) مرزوق : الفنون الزخرفية الاسلامية فيمصر قبل الفاطميين ص١٠٢ .

(٢٦) الجماهر في معرفة الجواهر ص١٨٤ .

(٢٧) مرزوق : المصدر السـابق ص١٠٣ .

(٢٨) حسـن : فنون الاسلام ص٥٩٢ .

(٢٩) فارن في محمد ، التحف المعدنية فيالعصر الاسلامي في اليمن، .

مصـــادر البحث :

١ ـ ابن المحاور (جمال الدين أبي يوسف) ·
صفـة بلاد اليمن ومكـــة وبعض الحجاز المسماة تاريـخ المستبصر (ليـدن ١٩٥١) ·

٢ ـ النـور (عبدالله أحمد) هذه هي اليمن (صنعاء ١٩٦٩) ·

(٣) الحبيشي (عبدالله محمد) ـ مجتمع صنعاء في القرن الحادي عشر هـ وما بعده ـ مجلة الاكليل عدد ٢ـ٣/١٩٨٣ ·

٤ ـ حسن (زكي محمد) الصين وفنون الاسلام (القاهرة ١٩٤١) ·

٥ ـ حسن (زكي محمد) فنون الاسلام (القاهرة ١٩٤٨) ·

٦ ـ حسـن (زكي محمـد) ·
كنوز الفاطميين (بيروت ١٩٨١) ·

(٧) الخزرجي (علـي بن الحسن) ، العقـود اللؤلؤية في تاريخ الدولـة الرسـولية (القـاهرة ١٩١١) ·

٨ ـ ديماند (م·س) الفنون الاسلامية (القاهرة ١٩٥٨) مترجم ·

٩ ـ زكي (عبدالرحمن) الاحجار الكريمة في الفن والتاريخ (القاهرة ١٩٦٤) ·

١٠ـ الشاطري (محمد بن أحمد) ، أدوار التاريخ الحضرمي (جدة ١٩٦٢ والمكـلا ١٩٧٢) ·

١١ـ عبدالحق (سـليم عادل) ـ اسهام في دراسـة الزجاج الاسلامي ـ الحوليات الاثرية السورية ٨ـ٩ /١٩٥٨ـ١٩٥٩ ·

١٢ـ عبدالخالق (هناء) الزجاج الاسلامي (بغـداد ١٩٧٦) ·

١٣ـ علي (جواد) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (بيروت ١٩٧١) ·

١٤ـ القزويني (زكريا بن محمد) اثار البلاد وأخبار العباد (بيروت ١٩٦٠)

١٥ـ لقمان (حمزة علي ابراهيم) تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربيـة (القـاهرة ١٩٦٠) ·

١٦ـ مجهول (بدون مؤلف) تاريخ اليمن في الدولة الرسولية (طوكيو ١٩٧٦)

١٧ـ محمد (غازي رجب) ـ التحف المعدنية في العصر الاسلامي في اليمن ـ مجلة سومر تحت النشر ·

١٨ـ مرزوق (محمد عبدالعزيز) ، الفنون الزخرفية الاسلامية في مصر قبل الفاطميين (القاهرة ١٩٧٤) ٠

١٩ـ الهمداني (الحسن بن أحمد) صفة جزيرة العرب (الرياض ١٩٧٤) ٠

٢٠ـ الويسي (حسين بن علي) اليمن الكبرى (القاهرة ١٩٦٢) ٠

٢١ـ
Pope, A . U. An introction to Persian Art, london 1930 .

٢٢ـ
Rathjens, C. Jewish Domestic Architecture in Sana, yemen - Jerusalem 1957 .